

● النتائج :

المسألة - كم تقدّم - ليست مقصورة على مجرد قضية من قضايا تاريخ الأدب ونقده . بل الهدف منها أبعد من ذلك بكثير ، وهى مسألة المقصود منها إصابة الإسلام فى مقتل .

لأنه إذا صحّ - جدلاً - أن رجال القرون الثلاثة الأولى ، ومن جاء بعدهم ، قد زوّروا الشعر الجاهلى . فمعنى ذلك أنهم لم يكونوا أمناء فى كل ما قالوه ، وفى كل ما رووه ودوّنوه فى مؤلفاتهم التى تفوق الحصر ، وهذا يفتح أبواب الريب على مصاريعها فيما جمعه أولئك الأبرار من علوم وفنون : فتفسيرهم لكتاب الله يعتريه الشك .؟! وجمعهم لحديث رسوله تحيط به الظنون . وما دوّنوه من كتب السيرة والتاريخ والأصول والعقائد والفقه واللغة ، وكل ذلك يصبح موضع شك وارتباب ، لأن ما يصدر عن غير الأمين لا ثقة فيه وهذا هو المقصود للحاقدين على الإسلام من المستشرقين وعملاتهم منا ، وإن صلوا وصاموا وزعموا أنهم مسلمون .



● دحض هذه المفتريات :

هذه الدعوى - كنظيراتها مما رُوّجه المستشرقون عن الإسلام - هى الزور والبهتان بعينه ..

فحين صدر كتاب طه حسين عام ١٩٢٦ الذى ضمّنه هذه التهم ، وثارت ثائرة المسلمين فى مصر - حكومة وشعباً - وفى غير مصر ، وانتهى الأمر بأن صدور الكتاب ، فى ذلك الحين تصدى فريق من العلماء الفيورين على الإسلام مثل الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق ، والأستاذ أحمد محمد الغمراوى وفريد وجدى ، وغيرهم ، تصدوا علمياً لمزاعم « مرجليوث » وطه حسين وفنّدوا شبهاتهم واحدة إثر أخرى . وكشفوا عن الزيف والباطل الذى عرضه طه حسين فى كتابه المذكور . وأثبتوا بأقطع الأدلة أن طه حسين كان

مغالطاً زائغاً عن الحق ، يعتمد الإساءة للإسلام وسيرة رجاله ، وكان المرحوم مصطفى صادق الرافعى ممن تصدى لأباطيل طه حسين و « مرجليوث » فى كتابه القيم « تحت راية القرآن » ، وما تزال مؤلفات هؤلاء الأغيار فى الرد على هذه الأباطيل متداولة فى الأسواق . وكلهم قد نزحوا عن قوس واحدة فى تسفيه ما ذهب إليه طه حسين وأساتذته .

ومن أسهم فى الرد المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « مطلع النور » تحت عنوان : « تزوير الشعر الجاهلى مستحيل » ، ونهج فى رده منهجاً نفسياً توصل من خلاله أن تزوير أدب أمة واحد من المستحيلات التى يرفضها العقل .

فشعر امرئ القيس - مثلاً - موزع على مراحل عمره ، ولشعر كل مرحلة منها خصائص فريدة . فمن ذا - يا ترى - ذلك العبقري الذى يحسن أن يقول شعراً متفاوت السمات ثم يدعى أنه شعر امرئ القيس ؟! وهكذا يقال فى جميع الشعراء الجاهليين .



● عروية القرآن يقين :

والقرآن الكريم نزل بلسان عربى مبين ، وهو ليس فى حاجة إلى أن تتوقف عرويته على شعر جاهلى أو غير جاهلى . هذا خطأ شنيع وقع فيه طه حسين ، أو افتراء وجهل ليس لهما مثيل . ومفسرو القرآن ، وشارحو حديث رسول الله ﷺ حين يستشهدون بشئ من الشعر على تفسير آية أو حديث أو كلمة فى آية أو حديث لم يكن هدفهم التدليل على عروية القرآن أو الحديث . بل كان هدفهم الشرح والإيضاح أو أن العرب كانوا يقولون ذلك . وهذا على سبيل الاستئناس لا على سبيل الوجوب .

وما استعمله المفسرون والمحدثون من الشعر الجاهلى قليل جداً إذا قورن بما للشعراء الجاهليين من تراث شعرى . فالإمام الزمخشري فى تفسيره « الكشاف »

لم يتجاوز ألف بيت من الشعر ، مع أن الزمخشري كان معروفاً بأنه أكثر المفسرين استشهاداً بالشعر ، ومما يدحض دعوى طه حسين ومستشرقيه أمور :
أولاً : أن الشعر الجاهلي واستعمالاته للغة - أفراداً وتركيباً - أوفر بكثير مما جاء في القرآن الكريم .

ثانياً : أن في القرآن الكريم ألفاظاً وتراكيب ليس لها نظير في الشعر الجاهلي .

ثالثاً : أن استشهاد المفسرين والمحدثين لم يكن مقصوراً على الشعر الجاهلي بل استشهدوا - كذلك - بشعر الإسلاميين في عهدي الأمويين والعباسيين .

رابعاً : أن علماء اللغة والبلاغة - كما استشهد المفسرون والمحدثون بالشعر الجاهلي في التفسير وشرح الحديث - استشهد علماء اللغة والبلاغة وغيرهم على القواعد اللغوية بالآيات القرآنية ، وبالأحاديث النبوية .

خامساً : أن جامعي اللغة ومستنبطي أصولها وقواعدها كانوا يتحرون الدقة في الرواية . فلم يأخذوا اللغة عن كل من هب ودب ، بل كانوا يقبلون روايات العرب الأقحاح ، والبدو الخُلص الذين لم تُلن ألسنتهم رخاوة الحضارة . ولم تفسد لهجاتهم مخالطة الشعوب غير العربية .

سادساً : أن جمع اللغة - وبخاصة الشعر - بدأ مبكراً قبل تصدى العلماء لتفسير كتاب الله ، وجمع سنة رسوله . ونشير هنا - مجرد إشارة - إلى كتاب : « جمهرة أشعار العرب » لأبى زيد القرشى ، وكان من رجال القرن الثانى الهجرى فى بعض الروايات ، وكتاب « طبقات فحول الشعراء » لابن سلام الجمحي المتوفى فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ، وهذان الكتابان من أسبق الكتب فى جمع أشعار العرب الجاهليين ومن جاء بعدهم فى صدر الإسلام . فهل المسبب يتقدم على السبب ؟ طه حسين يقول إن سبب تزوير الشعر الجاهلي هو حاجة المفسرين والمحدثين لإثبات عروبة القرآن والحديث ، ووجود الشعر الجاهلي مزوراً هو المسبب ، وها نحن قد رأينا وجود الشعر الجاهلي قبل بدء تدوين كتب التفسير والحديث . وعلى هذا يلزم منطق طه حسين المعوج أن

المسبب يتقدم على السبب ، وهذا باطل فى حكم العقل والعلم والواقع
والنقل ؟!

الأب - مثير سبب فى وجود أبنائه . وأبناؤه مسبب عنه . فهل يصح فى
العقول أن يولد الأب قبل ولادة أبنائهم ويكونوا أكبر منه عمراً وأسبق وجوداً
فى الحياة ؟!

نحن نفهم أن يفترى الحاقدون من المستشرقين على الإسلام ما شاءوا ، ولكن
لا نفهم أن يجاريهم فى هذا أناس يقال إنهم مسلمون . وصدق الشاعر الذى قال :
والليالى من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيب ؟!

* * *

لماذا لم يُعَيِّن الرسول خليفة له ؟

معروف أن صاحب الدعوة - صلى الله عليه وسلم - لم يُعَيِّن مَنْ سيكون والياً لأمر المسلمين بعد وفاته . وإن كانت بعض التصرفات النبوية ترشح أباً بكر لهذه المسئولية لكن تلميحاً لا تصريحاً . والسبب فى عدم تعيين خليفة هو إتاحة الفرصة للأمة فى أن تختار مَنْ يتولى أمرها بنفسها ، لأن مسألة الخلافة أو الإمامة العظمى أمر سوف يتجدد طيلة الحياة . وليس معقولاً ولا واقعياً أن يُعَيِّن الرسول ولاية الأمر إلى قيام الساعة . وقد مارس المسلمون فى صدر الإسلام طرقاً عدة فى شأن الولاية العظمى ، فكانت تولية أبى بكر عن طريق البيعة العامة مختاراً من بين ثلاثة مرشحين هو وعمر وأبى عبيدة ، وكانت تولية عمر عن طريق العهد من أبى بكر ، ولكنه العهد المشروط برضا الأمة ، ثم كانت تولية عثمان عن طريق الانتخاب من خلال درجتين - فهو أحد الستة الذين رشحهم عمر ، والستة كانوا من الذين توفى صاحب الدعوة وهو عنهم راض .

وقد اكتسبت الأمة خبرات فى نظام الحكم والممارسة المباشرة لشئون الإدارة العليا نجم عنها نظام فريد فى العالم ، وهو أن الأمة هى مصدر السلطات فى التولية والمراقبة لولاتها وعزلهم إذا اقتضى الأمر ، بينما كان يشيع فى العالم إذ ذاك نظم غاشمة منها وراثه الحكم ، وتقديس الحكام وعائلاتهم ، ومنها أن الحكام لهم حقوق على رعاياهم وليس لرعاياهم عليهم أية حقوق . فجاء النظام الإسلامى وأحدث انقلاباً عظيماً فى نظام الحكم ، ومنه سرت ما تسمى بالنظم الديمقراطية فى العالم المعاصر . أضف إلى ذلك أن مهمة الرسالة والرسول كانت فى إرساء قواعد المنهج وأصوله المتمثلة فى كتاب الله وسُنَّة رسوله . أما اختيار القادة والولاة فهو من شأن الأمة .

هذا هو الواقع . ولكن بِمَ فسرَ المستشرقون هذا العمل ، أعنى عدم النص من النبى على مَنْ يكون خليفة له ؟

يقول المستشرق « كازانوف » - وهو من أصل يهودى - إن محمداً (ﷺ) لم يعيّن خليفة له ، لأنه كان يعتقد أن القيامة ستقوم فى حياته أو بعد موته مباشرة ؟!

ذكر هذا الكلام المضحك الذى لا يمكن صدور مثله عن عاقل فى كتاب له يُسمى « محمد ونهاية العالم » وقد جراه فيه بصورة أخف المستشرق « بلاشير » فى كتابه « القرآن » حيث يقول : إن خيالاً ظل ملازماً للنبى الجديد بأن الكارثة التى ستقضى على العالم ستكون قريبة ، دون أن يحدد الوقت الذى ستقع تلك الكارثة فيه ؟!

ويمضى « كازانوف » فيقول : إن أصحاب النبى كانوا مثله فى ذلك الاعتقاد ولذلك أحسوا بالخرَج لما توفى النبى ولم تقع الساعة ، فكان لا بد من البحث عن مخرج من ذلك الخرج ؟!

ويتطوع « كازانوف » بوهمه المريض الحاقد فيقول : إن ذلك المخرج كان فى اضطراب أبى بكر إلى اختراع آيتين وإضافتهما إلى القرآن إحداهما : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ (١) ، والثانية : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ (٢) .

ولكن كيف استدل « كازانوف » على هذا الزعم والافتراء ؟ ومن أين فهم أن الرسول كان يعتقد قيام الساعة فى حياته ؟! إذا عرفت دليله ظهر لك إما جهله الفاضح . وإما حقه وافتراؤه المكشوف على الرسالة والرسول . إن دليله هو قوله تعالى مخاطباً خاتم الرسل : ﴿ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ (٣) .

هذه الآية ليس فيها من قريب أو بعيد أى دليل لـ « كازانوفا » وأتباعه فقد فهم أن « اليقين » فى الآية المراد منه « القيامة » وهذا هو الجهل فى أجلى صوره ؛ لأن المراد من « اليقين » فيها : « الموت » . أى دُم على عبادة ربك حتى يوافيك أجلك .

والقيامة وُصفت فى القرآن بأوصاف كثيرة واضحة الدلالة عليها ، مثل : الطامة - الصاخة - القارعة - الآرفة - الساعة - الحساب - البعث - الخروج - الحاقة - الواقعة - أمر الله - النفخ فى الصور .. ولم توصف ولا سميت بـ « اليقين » . فمن أين فهم « كازانوفا » أن المراد منه الساعة يا ترى ؟!

وفى القرآن الحكيم مواضع عدة تفيد - صراحة - أن علم الساعة عند الله وحده لم يطلع عليه أحداً ، لا ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلأ ، والقرآن كما تقول أم المؤمنين عائشة : كان هو خُلِقَ رسول الله ﷺ ، وإنا لنتساءل : لماذا تجاهل « كازانوفا » ومشايبيه قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴾ (١) .. أى لا تعلم متى تكون .

وقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى ، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (٢) .

والقيامة غيب ، بل هى من أغيب الغيوب ، وصاحب الدعوة يقول كما أمره ربه : ﴿ .. لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ .. ﴾ (٣) .

وفى الحديث الصحيح حين جاء جبريل النبى ﷺ فى صورة رجل يسأله عن أمور كان منها : أخبرنى متى الساعة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » يعنى أن كلاً من جبريل والرسول لا يعلم من أمر الساعة شيئاً .

(٣) الأنعام : ٥٠

(٢) الأعراف : ١٨٧

(١) النازعات : ٤٢ - ٤٣

صحيح أن القرآن أفصح أكثر من مرة أن الساعة ستكون قريباً ﴿مَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً ﴾ وَتَرَاهُ قَرِيباً ﴾ (٢) . ولكن هذا القرب بالنسبة لعلم الله وحده لا يشركه أحد فيه .

هذا هو الحق الذي عمى عنه « كازانوف » أو تعامى كما عمى أو تعامى أسلافه الذين مسخهم الله قردة وخنازير .

أما افتراؤه على أبي بكر بتحريف القرآن - ومعاذ الله من ذلك - فإن « كازانوف » يهودى وأسلافه حُرّفوا التوراة وخانوا أمانة الوحي عمداً فظن أن كل المؤمنين وورثة الرسالات قد يصنعون مثل ما صنع أسلافه الملعونون على لسان داود وعيسى عليهما السلام .

* *

● الهدف :

إن الهدف الذى أرادته « كازانوف » من وراء هذا العبث هو أن يوهم الأعمار من الناس ، وأن يشيع بين شعوب الغرب والشرق أن القرآن محرف ، وفيه ما فيه من صنع البشر ، وأن يرمى السلف الصالح من المسلمين بالخيانة والتزوير ؟! وهيهات هيهات لما يدعى . فباطله وباطل أمثاله من أعداء الإسلام - مبشرين ومستشرقين وملحدين - أشبه ما يكون بكرة من الثلج تنمو ليلاً وتحت درجة الصفر من البرودة فإذا أشرقت الشمس ذابت تلك الكرة تحت أشعتها ، وتبخرت وذهبت أدراج الرياح .

* * *

أُمِيَّةُ صَاحِبِ الدَّعْوَةِ .. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فى ختام تصدينا لافتراءات المستشرقين آثرنا أن يكون مسك الختام الحديث عن أُمِيَّةُ صَاحِبِ الدَّعْوَةِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وتجدر الإشارة إلى أن المستشرقين لهم موقفان متضادان من أُمِيَّةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : فمرة يقولون إنها أُمِيَّةٌ مَكْذُوبَةٌ ادَّعَاها المسلمون لإثبات إعجاز القرآن ، وأنه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لم يكن أُمِيًّا ، بل كان يقرأ ويكتب !؟

ومرة يقولون : إنها أُمِيَّةٌ حَقِيقِيَّةٌ . ثم يرتبون على ذلك مدخلا للطعن والقدح فى صاحب هذه الأُمِيَّةِ ، مستثمرين فى هذا المجال أن طبيعة هذا العصر تصم الأُمى بالجهل والتخلف . فكفى ذمًّا لرجل أن تصفه بأنه جاهل لا يقرأ ولا يكتب ، ومعنى هذا أن المستشرقين يثبتون الشئ ونقيضه فى وقت واحد وهم يتحدثون عن الإسلام . ما دام فى إثبات الشئ ونقيضه ما يحقق لهم الثوب على الإسلام والإساءة إليه . والأمر المؤسف حقًّا أنهم استطاعوا أن يؤثروا على بعض المثقفين من المسلمين ، فراح هؤلاء المثقفون يجتهدون فى نفى الأُمِيَّةِ عنه عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، ونِيَّةُ هؤلاء المثقفين حسنة ولكنهم مخطئون فى موقفهم هذا ؟

* *

● أُمِيَّةٌ ثَابِتَةٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ :

وفى البداية نسارع فنقول : إن أُمِيَّةَ النَّبِيِّ ﷺ ، بل وأُمِيَّةَ قومه حين المبعث وقبله ، أُمِيَّةٌ حَقِيقِيَّةٌ ثَابِتَةٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . فمن نصوص الكتاب فى أُمِيَّةِ الرَّسُولِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ (١) .

وأما أُمِيَّةُ قومه فمما جاء فيها فى الذِّكْرِ الْحَكِيمِ : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ (٢) .

وفى الحديث الصحيح : « نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » .

وفى القرآن نصوص أخرى تقرر هذه الأمية . فلا مناص من الإقرار بها ، ومن يجارى المستشرقين فى شقى دعواهم - وإن كان حسن النية - فهو حائد عن الصواب . فالأمية أمية حقيقية لا كما يدعى المستشرقون فى شق دعواهم الأول أنها أمية غير حقيقية بل مدعاة ، وثبتت هذه الأمية لصاحب الدعوة سمة من سمات الفضل ورفعة الشأن ، لا كما يدعى المستشرقون أنها من سمات النقص والانحطاط . والمسألة فى حاجة إلى التبصر وعمق النظر وعدم الانسياق وراء الأوهام .

* *

● ليست مدعاة من أجل الإعجاز :

سبق لنا فى هذه المواجهة أن أثبتنا بالدليل القاطع أن إعجاز القرآن ليس فى حاجة إلى أى اعتبار من خارج القرآن . بل هو إعجاز ذاتى قائم بذات القرآن ، وكامن فى نظمه وبيانه ، ولا شئ من الإعجاز متوقف على أمر خارج دائرة القرآن نفسه ، فهو معجز بذاته سواء أكان صاحب الدعوة أمياً كما هو الحق والصواب ، أو كان قارئاً كاتباً على فرض ثبوت القراءة والكتابة له صلى الله عليه وسلم . وهو فرض مستحيل الوقوع لورود الأدلة القاطعة على نفيه . وهى أدلة مستقاة من الكتاب والسنة كما تقدم ، ثم من وقائع التاريخ لتلك الفترة التى نزل فيها القرآن .

* *

● الحكمة فى هذه الأمية :

قلنا إن إعجاز القرآن صفة ذاتية للقرآن نفسه ، ولن يؤثر فيها أى ظرف خارجى . فهو معجز فى كل حال . أما الحكمة من أمية النبى ﷺ فتتجلى فى اعتبارين :

الأول : قطع أسباب الريب عن قصار النظر من ضعف الإدراك ومن هواة الباطل . إذ لو كان النبي يقرأ ويكتب لوجد الشيطان مدخلاً إلى عقول بعض الناس بأن القرآن صنعة محمد ﷺ ومن تأليفه ، ولوجد خصوم الدعوة سلاحاً شديد التأثير على ضعف البصيرة . وسداً لهذه الذرائع ، وحسماً لوساوس شياطين الجن والإنس أرادت حكمة الحكيم أن يكون صاحب الدعوة أُمياً .

الثانى : أن الله عزَّ وجلَّ لم يرض أن يكون من البشر معلماً أو أستاذاً لصاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم . ولذلك لم يجلس محمد ﷺ من أحد مجلس التلميذ من الأستاذ أو المتعلم من المعلم . بل كان معلمه واحد فى الوجود هو الله تعالى ، وقد أشار القرآن إلى هذا الفضل فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ (١) ، هذا الخطاب السامى الجليل لم يخاطب الله به أحداً من عباده سوى خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم .

ولا يقدح فى هذه الحقيقة أن خديجة رضى الله عنها فى بدء الوحي استصبحت النبي ﷺ إلى ورقة بن نوفل الكاهن المعروف لأن هذا كان من باب الاستطلاع والمشورة لا من باب جلوس تلميذ أمام أستاذ .

وكم كانت - يا ترى - مدة هذه الزيارة ؟ نصف ساعة أو ساعة مثلاً ؟ وهل تكفى هذه المدة - نصف ساعة أو ساعة - لأن يكون « ورقة » أستاذاً لمحمد ، ومحمد تلميذاً له .

والمحفوظ عن تلك الزيارة أن « ورقة » شهد شهادة قاطعة - بما له من خبرة عن وحي الله - أن ما تلقاه محمد ﷺ فى غار حراء هو كلام الله من مثل ما كان ينزل على الرسل من قبل . ثم انتهت المقابلة عند هذا الحد .

(١) النساء : ١١٣

أما دلالة التاريخ على أُمِّيَّة النبي وقومه فمما لا يُقبل فيها جدل ، فقد تواترت بها الرواية ولم يطعن فى ثبوتها أحد جيلاً بعد جيل ، إلا فى هذا العصر الذى تخرُج فيه بعض المثقفين من المسلمين بما رتبته المستشرقون على أُمِّيَّة النبي ﷺ من قوادح ومذام ، وقد عاضد هذا الموقف ما يوصم به الأميون من جهل ، ولوجود الفوارق الهائلة بين رجل يجيد القراءة والكتابة وبين رجل آخر لا يفرق بين الألف وكوز الذرة - كما يقال .

وأُمِّيَّة العرب فى عصر المبعث وقبله لم تكن أُمِّيَّة مائة بالمائة ، بل كان فيهم من يقرأ ويكتب ، ولكنهم نسبة ضئيلة ، بينما السواد الأعظم منهم كانوا أُمِّيِّين لا قارئين ولا كاتبين ، ولذلك كان اليهود يسمون العرب أُمِّيِّين ويهدرون حقوقهم كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ (١) أى يفعلون معهم ما شاءوا من غدر وانتهاك حقوق .

وكلمة « أُمى » ترجع فى أصل اشتقاقها إلى « الأم » ، أى إلى الحالة الأولى التى وُلِدَ عليها الطفل . والطفل حتى الآن يولد جاهلاً بكل شئ . وبخاصة القراءة والكتابة ، لأنها من الأمور التى يكتسبها الإنسان بالتعلم فى مراحل حياته اللاحقة للطفولة المبكرة ، فالياء فى « أُمى » للنسب وليست للإضافة .

* *

● الحكمة فى أُمِّيَّة قوم النبي :

أشرنا - قبل - إلى طرف من الحكمة فى أُمِّيَّة النبي ﷺ . أما الحكمة فى أُمِّيَّة قومه - وهم البيئة التى نشأ فيها النبي - فزيادة حسم وإعدام لوساوس شياطين الجن والإنس التى تزعم أن لمحمد ﷺ معلّم من البشر ، إذ كيف يكون لهذا المعلّم وجود فى بيئة أُمِّيَّة ، ولقلة القارئین والكاتبين فيها لو كلن النبي يتردد على واحد منهم ، أو كن واحد منهم يتردد عليه ، لما خفى الأمر على أحد من خصوم الدعوة ، ولتمسك بذلك كفار قريش وأثبتوه بكل قوة .

(١) آل عمران : ٧٥

ولذلك لما احتاجوا إلى أن يُدعوا هذه الدعوى لم يجدوا عربياً واحداً من قومه يصلح أن يكون معلماً له ، فنسبوا تعليمه لرجل أعجمي ليس عربياً ، وحكى القرآن عنهم هذا الزعم ثم أبطله بدليل أقطع من السيوف البواتر .

قال في عرض دعواهم : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ (١) .

وقال في إبطال ونسف هذه الدعوى : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ (٢) .

وفحوى دليل الإبطال : كيف يتعلم رجل لا يعرف لغة معلمه ولا معلمه يعرف لغته ؟! دليل قاطع مفحم كما ترى .

* *

● الحكمة من أُمِّيَّتِهِ - صلى الله عليه وسلم - وأُمِّيَّة قومه :

أشرنا فيما مضى إلى الحكمة من أُمِّيَّتِهِ عليه السلام ، وإلى الحكمة من أُمِّيَّة قومه كل على انفراد .

ونريد هنا أن نشير إلى الحكمة من الأُمِّيَّتَيْنِ معاً في إطار واحد :

وخلاصة ما هدانا إليه النظر أن الله تعالى إقتضت حكمته البالغة ألا يُنسب تعليم النبي وتعليم قومه إلى أحد سواه . فهو - وحده - معلمها .

وبفضل هذا التعليم الرفيع الشأن ملأ صاحب الدعوة ربوع الكون نوراً وهدى . وبفضل هذا التعليم المبارك تحوّل العرب - قومه - من أمة خاملة إلى أمة رائدة قادت البشرية جمعاء من الظلمات إلى النور . وكانت خير أمة أخرجت للناس : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (٣) .

(٣) آل عمران : ١١٠ .

(٢) النحل : ١٠٣ .

(١) النحل : ١٠٣ .

اللَّهُ عَلَّمَ رَسُولَهُ ، وَرَسُولُهُ عَلَّمَ أُمَّتَهُ .. فَاتَّصَلَتِ الْأُمَّةُ بِحَبْلِ اللَّهِ الْمُتَيْنِ ،
وَوُلِدَتْ مِنَ الْعَدَمِ فِي مَجَالَاتِ الْقِيَادَةِ وَالرِّيَادَةِ الرَّاشِدَةِ . وَكَفَى بِذَلِكَ مُعْجَزَةٌ
لِلرَّسَالَةِ وَصَاحِبِهَا . وَقَدْ صَدَّقَ الْبُوصِيرِيُّ إِذْ يَقُولُ مُخَاطَباً إِمَامَ الْمُرْسَلِينَ وَسَيِّدَ
الْهُدَاةِ :

أَخُوكَ عَيْسَى دَعَا مَيِّتاً فَقَامَ لَهُ وَأَنْتَ أَحْيَيْتَ أَقْوَاماً مِنَ الرَّمَمِ
أُمَّةً خَرَجَتْ مِنَ الصَّحَرَاءِ فَرَادَتْ الْعَالَمَ بِحَوَاضِرِهِ الْعَمَلَاةِ ، وَكُفُوفِهِ وَقَرَاهُ ،
إِنَّهُ لِمُعْجَزَةٌ خَالِدَةٌ لِلْإِسْلَامِ صَنَعَهَا فِي أَقَلِّ مِنْ رِيعِ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ كَانَ مَنْ وَلَدَ مِنَ
الْبَشَرِ مَعَ مَوْلِدِ الْإِسْلَامِ شَبَاباً فِي سَنِ الْمَرَاهِقَةِ أَوْ قَرِيبِ عَهْدِ بِالْمَرَاهِقَةِ . وَالْأُمَمُ
لَا تَبْنَى وَتَزْدُحِرُ فِي مِثْلِ هَذَا الزَّمَنِ الْقَصِيرِ إِلَّا إِذَا كَانَ الْبَانِي مَنْ لَهُ مَلَكَوَتُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . وَبِيَدِهِ - وَحْدَهُ - مَقَالِيدُ الْأُمُورِ .

* *

● القراءة والكتابة وسائل لا غايات :

يَتَعَلَّمُ النَّاسُ الْقِرَاءَةَ وَالكِتَابَةَ بِاعْتِبَارِهِمَا وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ تَحْصِيلِ الْعِلْمِ
الْمُرُوثِ . أَى الْمَعَارِفِ الَّتِي لَهَا وَجُودٌ سَابِقٌ ، وَسَطُرَتْ فِي الْكُتُبِ ، وَبِخَاصَّةِ
التَّارِيخِ النَّبَوِيِّ مِنْ لَدُنْ آدَمَ حَتَّى عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، هَذَا مَا كَانَ لَهُ وَزَنٌ فِي
مَعَارِفِ الْعَصُورِ الْقَدِيمَةِ .

وَمُحَمَّدٌ ﷺ وَقَوْمُهُ لَمْ يَكُونُوا فِي حَاجَةٍ إِلَى تَحْصِيلِ ذَلِكَ الْعِلْمِ ، وَالتَّارِيخِ
النَّبَوِيِّ كَانَ وَقْتِذَاكَ قَدْ أَصَابَهُ كَثِيرٌ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ . فَلَمْ يَكُنْ تَحْصِيلُهُ
عَلَى عِلَاقَتِهِ الَّتِي أَشْرْنَا إِلَيْهَا مُجْدِياً شَيْئاً بِالنِّسْبَةِ لِصَاحِبِ الرِّسَالَةِ وَقَوْمِهِ . لِذَلِكَ
لَمْ تَكُنْ مَعْرِفَةُ الْقِرَاءَةِ وَالكِتَابَةِ - بِالنِّسْبَةِ لِهَمَا - أَمراً ذَا خَطَرٍ ، لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ
ادْخَلَ لِلْأُمَّةِ وَلِصَاحِبِ الدَّعْوَةِ وَسِيلَةً أُخْرَى لِتَحْصِيلِ عِلْمٍ آخَرَ ، تِلْكَ الْوَسِيلَةُ
الْأُخْرَى هِيَ الْوَحْيُ ، وَذَلِكَ الْعِلْمُ الْآخَرُ هُوَ الْحَقَائِقُ النَّاصِعَةُ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْوَحْيُ .
وَبَعْدَ رَسُوخِ ذَلِكَ الْعِلْمِ شَاعَتْ الْقِرَاءَةُ وَالكِتَابَةُ بَيْنَ الْعَرَبِ قَدَمَ النَّبِيِّ لِتَحْصِيلِ
ذَلِكَ الْعِلْمِ الْجَدِيدِ وَحِفْظِهِ وَتَبْلِيغِهِ وَتَدْوِينِهِ لِلْأَجْيَالِ الْلاحِقَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ،

محرمات الأمة - ومعها رسولها - قبيل الإسلام من معرفة القراءة والكتابة لم يكن عاراً ولا جهلاً ، ولم يعقدها - فيما بعد - أن رائدة الأمم شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً في العلم الصحيح ، والمعرفة الناهضة ، والوسائل لا تشرف إلا بسمو غاياتها وهذا ما أكسب وسيلة القراءة والكتابة شرفاً لا يضارع في ظل الإسلام حيث صارت أداة لخدمة الوحي وتسجيل حقائقه بكل أمانة وإخلاص ، وفقه وبصيرة .

لقد تفرد الله بتعليم رسوله محمد ﷺ وتأديبه وتربيته ، وتفرد رسوله بتعليم أمته وتأديبها وتربيتها . ونشأت هذه الأمة الأُمِّيَّة على روح القرآن فطبقت ذكراها والآفاق . وتغير وجه التاريخ الإنساني . أمة صنعها فلم يكن لأمم الحضارة عليها فضل من أستاذية أو توجيه . فجاءت هذه الأمة حرة من قيود الأرض ، مهتدية بنور السماء ، تصرف أمرها على هدى من كتاب الله العزيز وسنة رسوله الخاتم . وأشار القرآن العظيم إلى أثر روح القرآن في تربية الرسول وأمته التي لبى نداء ربها : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ (١) .

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

فيه ذكرم : أى شرفكم على الأمم - هكذا قال المفسرون .

﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ، إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ (٣) .

أى شرف لك ولقومك .

* *

(٣) الزخرف : ٤٣ - ٤٤

(٢) الأنبياء : ١٠

(١) الشورى : ٥٢ - ٥٣

● ما أغنت عنهم من شئ :

وهل سأل المتخرجون من وصف النبي ﷺ وقومه بالأُمِّيَّة . هل سألوا أنفسهم ماذا أغنت معرفة القراءة والكتابة عن الأمم التي كانت تحببها قبل الإسلام وبعده . إن الفُرس والروم معدودتان في أُمم الحضارة القديمة وكانتا تحببان القراءة والكتابة حين كانت الأمة العربية أمة أُمِّيَّة ، ومع هذا كانت دولتا الفُرس والروم غارقتين في الجهل والجهالة .. سادرتين في الضلال . فما أغنت عنهم معرفتهم من شئ . والمثال نفسه صالح الآن ليشمل أُمماً وشعوباً معاصرة تقدمت ثقافتها مجرد القراءة والكتابة إلى ميادين فسيحة من العلوم والمعارف والاختراعات . ومع هذا فهي أُمم لا وزن لها في ميزان الحق ، وكثير منها أحلت العلم محل الإيمان بالله . وأصابها فقر فظيع في مجال الأخلاق والفضائل النفسية . أما تلك الأمة الأُمِّيَّة ، ورسولها الأُمي فقد واجهت العالم كله بحضارة لم يعرف لها مثيل ، ولن يعرف لها مثيل ، وقطعت أشواطاً مديدة من الزمن دون أن ينال منها قِدم ، أو تقف صدقها وسحرها حادثة . وكل يوم يمر يكشف من الإسلام معجزات ومعجزات في شتى مجالات العلوم والمعارف : ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (١) .

* *

● لسنا معهم :

أما ذلك الفريق من مثقفي المسلمين الذين انصاعوا لمقولات المستشرقين فراحت طائفة منهم تروِّج ما قالوا ضد نبي الإسلام ، وتزعم أن لا النبي كان أُميًّا بمعنى لا يقرأ أو لا يكتب ، ولا قومه كانوا أُميين يجهلون القراءة والكتابة ، سواء أكانوا حسنى النية أو سيئيتها فقد أخطأوا خطأ فاحشاً : لأنهم - بفعلهم

(١) التوبة : ٣٢

هذا - يهدرون قيمة الأخبار الصادقة الواردة في القرآن أصدق الحديث ،
والواردة عن صاحب الدعوة الصادق المصدوق .

ونحن لسنا معهم - ولن نكون - ولن نتحرّج كما تحرّجوا من وصف النبي ﷺ
وقومه بالأميّة . فهي أميّة شرف ورفعة - كما بيّنا - وليست أميّة جهل وتخلف
وانحطاط .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي
التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ
الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ
عَلَيْهِمْ ، فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ
أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١)

البلد الطيب الأمين .. مكة المكرمة .

مى ليلة الخميس ٢٤ من شعبان سنة ١٤١٢ هـ (٢٧ من فبراير سنة ١٩٩٢ م) .

و حمد لله في الأولى والآخرة .

عبد العظيم بن إبراهيم بن محمد المطعنى

* * *